(١٣)

باب من الشرك الاستعانة بغير الله ودعاء غير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره).

ش: قال شيخ الإسلام رحمه الله: الاستغاثة هي طلبُ الغَوث، وهو إزالة الشِّدة، كالاستنصار: طلبُ النصر. والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرقُ بين الاستعانة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

فبينهما عمومٌ وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

وقوله: (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما.

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدًا من دونه ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١] وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد :١٤] وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر، وهو يتضمن دعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعيًا عابدًا.

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.

وقد قال الله تعالى عن خليله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم :٤٨-٤٩] فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]

وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه، كقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]. وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة، فإن الداعي يرغب إلى المدعو ويخضع له ويتذلل، وغير ذلك.

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة، فإذا صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله فهو مشرك، مصادم لما بعث به رسوله من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر :١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في (الرسالة السَّنية): فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام لأسباب منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عليه السلام.

فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني، أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليعبد وحده لا شريك له، ولا يدعى معه إله آخر. والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ

إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر :٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس :١٨] فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. انتهى.

وقال أيضًا: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا.

نقله عنه صاحب (الفروع) [١] وصاحب (الإنصاف) [٢] وصاحب (الإقناع) [٣] وغيرهم. وذكره في (مسأل الوسائط) الإسلام ونقلته منه في (الرد على ابن جرجيس).

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه - أي: الشرك - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي [٤] رحمه الله، في (رده على السبكى) في قوله: إن المبالغة في تعظيمه - أي الرسول ﷺ - واجبة:

إن أُريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا، حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطى ويمنع، ويملك لمن استغاث به من

---

(١) هو: محمد بن مفلح بن محمد المقدسي الدمشقي الحنبلي أبو عبد الله، فقيه، أصولي، محدث، ولد ونشأ ببيت المقدس، وسمع من عيسى المطعم، وأخذ عن المزي والذهبي وتقي الدين السبكى وغيرهم، ودرس وأفتي وناظر، وحَدّث. من كتبه: الآداب الشرعية والمنح المرعية، شرح كتاب المقنع. توفى سنة (٧٦٣هـ).

(٢) هو: علي بن سليمان بن أحمد بن محمد السعدي الحنبلي ولد بمردا بفلسطين ونشأ بها، وتوجه إلى القاهرة، وقدم دمشق. من تصانيفه: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المنهل العذب القرير في مولد الهادي البشير النذير ﷺ، التنقيح المشبع في تحرير المقنع في أصول الفقه. توفى سنة (٨٨٥هـ).

(٣) هو: شرف الدين موسى بن أحمد بن موسى بن سالم المقدسي الحجاوى الصالحى الدمشقي، فقيه حنبلي.

(٤) هو: محمد بن أحمد بن عبد الهادي أبو عبد الله، ابن قدامة المقدسي الحنبلي أحد الأذكياء المشهورين، وإمام الفقهاء المحدثين، تفقه بابن مسلم، وأخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي وغيرهما، ومهر في الحديث والفقه والأصول والعربية وغيرها. قال الذهبي في معجمه: هو الفقيه البارع المقرئ المجود المحدث الحافظ النحوي الحاذق ذو الفنون. وقال الحافظ ابن كثير: كان جبلاً في العلل والطرق والرجال، حسن الفهم جدًّا صحيح الذهن. من كتبه: الأحكام في ثماني مجلدات، الصارم المنكي على نحر ابن السبكي رد فيه على أبي الحسن السبكي الكبير في رده على شيخه ابن تيمية، والمحرر في الحديث، وشرح التسهيل في مجلدين، شرح العلل على ترتيب الفقه، وغيرها. توفى قبل بلوغ الأربعين سنة (٧٤٤هـ). انظر: أبجد العلوم (٣/ ١٥٤).

دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء.

فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي (الفتاوى البزازية) من كتب الحنفية: قال علماؤنا: من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله - في كتابه الرد في على من ادَّعى أنَّ للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات. يَّدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات.

فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد، ونُجباء وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا فيهما الأجور.

قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثم قال: وأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٠] ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الشورى: ٤٩] ونحوه من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيءٍ ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا، وإماتة وخلقًا.

وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرِۢ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قول: فقوله في الآيات كلها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ [النساء: ١١٧] أي: من غيره. فإنه هام يدخل فيه من اعتقدته، من ولى وشيطان تستمده؛ فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟

إلى أن قال: إن هذا القول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»[(١)] الحديث.

فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه. فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدى، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث (١٦٣١)، وأبو داود، حديث (٢٨٨٠)، والترمذي، حديث (١٣٧٦)، والنسائي، حديث (٣٦٥١).

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال. وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات. فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا: فقد وقع في وادي جهلٍ خطير، فهو على شفا حُفرة من السعير.

وأمَّا كونهم مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياءُ الله بهذه المثابة؛ فهذا ظنُّ أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣].

فإن ذكرَ ما ليس من شأنه النفعُ ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه: إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفاع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوا إن منهم أبدالاً ونقباء وأوتادًا ونجباء وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضي المحدث أبو بكر ابن العربي [1] في (سراج المريدين)، وابن الجوزى، وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود: أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء. فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب.

والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل، ومن قال قولاً بلا برهان فقوله ظاهر البطلان، مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان المتمسكون بمحكم القرآن، المتسجيون لداعى الحق والإيمان. والله المستعان وعليه التكلان.

---

(١) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، الإمام أبو بكر ابن العربي المعافري الأندلسى، الحافظ أحد الأعلام، ولد بالأندلس سنة (٤٦٨هـ)، رحل إلى الشام وبغداد وحج، ورجع إلى مصر والإسكندرية فسمع بها من جماعة، وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق. وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مقدمًا في المعارف كلها، أحد من بلغ رتبة الاجتهاد، وأحد من انفرد بالأندلس بعلو الإسناد، ثاقب الذهن، ملازمًا لنشر العلم، صادقًا في أحكامه. من كتبه: أحكام القرآن، شرح الموطأ، شرح الترمذي، وغير ذلك. توفى سنة (٥٤٣هـ).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٦-١٠٧]).

ش: قال ابن عطية: معناه قيل لي ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ فهو معطوف على ﴿أَقِمْ﴾ وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ. إذا كانت هكذا، فأحرى أن يحذر من ذلك غيره. والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة.

قال أبو جعفر ابن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعنى بذلك الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجيًا نفعها أو خائفًا ضرها فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦] يقول: من المشركين بالله.

قلت: وهذه الآية لها نظائر كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [القصص: ٨٨].

ففي هذه الآيات: بيان أن كل مدعو يكون إلهًا، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره. ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥] والدين: كل ما يدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة. وفسره ابن جرير في (تفسيره) بالدعاء، وهو فرد من أفراد العبادة، على عادة السلف في التفسير، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها.

فمن صرف منها شيئًا لقبر أو صنم أو وثن، أو غير ذلك فقد اتخذه معبودًا وجعله شريكًا لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس:١٠٧].

فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون كل ما سواه. فيلزم

من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، المعبود وحده، فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع. ولا يملك ذلك ولا شيئًا منه غيره تعالى، فهو المستحق للعبادة وحده، دون من لا ينفع ولا يضر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] فهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة على ذلك.

فاعتقد عباد القبور والمشاهد نقيض ما أخبر به الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره: بسؤالهم والالتجاء بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته.

وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨] فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله. وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك، لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

وأما هؤلاء المشركون: فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك. فجعلوا لهم نصيبًا من التصرف والتدبير، وجعلوهم معاذًا لهم وملاذًا في الرغبات والرهبات ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] أي: لمن تاب إليه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]).

ش: يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق منه وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا. فتقديم الظرف يفيد الاختصاص.

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص، فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها.

قال العماد ابن كثير: رحمه الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي لا عند غيره. لأنه المالك له، وغيره لا يملك شيئًا من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]).

ش: نفى سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره. وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة.

والآية تعم كل من يدعى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله.

قال أبو جعفر بن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الأحقاف: ٦] يقول تعالى ذكره: وإذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرءون منهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا لعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا منهم يا ربنا.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] من الملائكة والإنس والجن، وساق بسنده عن مجاهد قال: عيسى وعزير والملائكة.

ثم قال: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى: تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨] نواليهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١] انتهى.

قلت: وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب؛ كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم: الصلاة لغة الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] الآيتين وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس :١٢] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت :٥١] وقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت :٤٩] الآية. وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال :٩].

وفي حديث أنس مرفوعًا: «الدعاء مخ العبادة» (١).

وفي الحديث الصحيح: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» (٢).

وفي آخر: «من لم يسأل الله يغضب عليه» (٣).

وحديث: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء» (٤) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه.

وقوله: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض» (٥) رواه الحاكم وصححه.

وقوله: «سلوا الله كل شيء حتى الشِّسْع (٦) إذا انقطع» (٧) الحديث. وقال ابن عباس

---

(١) تقدم تخريجه وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ، حديث (٣٤٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠)، حديث (١٨١٧) من حديث أبي هريرة، وهو حسن لغيره، وانظر صحيح الجامع (٢٤٥)، صحيح الترغيب (١٦٥٣)، الصحيحة (٥٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، حديث (٣٣٧٣)، وابن ماجه، حديث (٣٨٢٧)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٢٩)، حديث (٦٥٨)، من حديث أبي هريرة. وهو حسن، وانظر صحيح الجامع (٢٤١٨)، صحيح الأدب المفرد.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، حديث (٣٣٧٠)، وابن ماجه، حديث (٣٨٢٩)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦٢)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٥١)، حديث (٨٧٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٦)، حديث (١٨٠١)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٤٩)، حديث (٧١٢)، من حديث أبي هريرة، وهو حسن، وانظر صحيح الجامع (٥٣٩٢)، صحيح الترغيب (١٦٢٩).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٩)، حديث (١٨١٢)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٣٤٤)، حديث (٤٣٩)، من حديث على بن أبي طالب. وفي إسناده محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو متروك. وقال الألباني: موضوع. وانظر ضعيف الجامع (٣٠٠١)، ضعيف الترغيب (١٠١١)، الضعيفة (١٧٩).

(٦) الشِّسْع: أحد سيور النعل، وهو الذى يدخل بين الأصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذى في صدر النعل المشدد في الزمام. والزمام: السير الذى يُعقد فيه الشسع. انظر: النهاية (٢/ ٤٧٢).

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ليسأل الحاجة مهما صغرت، حديث (٣٩٧٣)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٨)، حديث (٨٦٦)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٧٣)، حديث (٥٥٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٣٠)، حديث (٣٤٠٣) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ليسأل أحدكم

رضي الله عنهما: **أفضل العبادة الدعاء** وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] الآية. رواه ابن المنذر والحاكم وصححه.

وحديث: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان...**»(١) الحديث: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**»(٢).

وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب.

فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفًا وخلفًا.

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر، فذلك باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالبًا في المعنى، فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار، وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما في الفاتحة والسجدتين وفي التشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود. فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد.

ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع». وفيه قطن بن نسير الغبري، قال في الميزان: كان أبو حاتم يحمل عليه، وقال ابن عدي: يسرق الحديث، وانظر ضعيف الجامع (٤٩٤٦)، الضعيفة (١٣٦٢)، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٤)، حديث (٤٥٦٠) عن عائشة موقوفًا بلفظ: «سلوا الله كل شيء حتى الشسع فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر».

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، حديث (١٤٩٥)، والترمذي، حديث (٣٥٤٤)، والنسائي، حديث (١٣٠٠)، وابن ماجه، حديث (٣٨٥٨) عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى». وهو حسن صحيح، وانظر صحيح الترغيب (١٦٤١)، المشكاة (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، حديث (١٤٩٣)، والترمذي، حديث (٣٤٧٥)، وابن ماجه، حديث (٣٨٥٧)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٤٩)، حديث (٢٣٠٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٣)، حديث (٨٩١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٣)، حديث (١٨٥٨) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله... إلخ، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى». وهو صحيح، وانظر صحيح الترغيب (١٦٤٠).

ومما يتبين هذا المقام ويزيده إيضاحًا. قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول مرة يا الله، ومرة: يا رحمن؛ فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية. ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: إن هذا الدعاء هنا بمعنى التسمية، والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى، إما الله، وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنى.

وهذا من لوازم المعنى في الآية. وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن. وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء.

ثم قال: إذا عرف هذا فقوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه. قال الحسن: بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل أثيبه إذا عبدني.

وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا. وهذا يأتي في مسألة الصلاة وإنها نقل عن مسماها في اللغة وصارت حقيقة شرعية، واستعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي وهي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط.

وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شيء من ذلك، فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء: إما عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالتين داع. انتهى. من (البدائع).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]).

ش: بيَّن تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده. فذكر ذلك سبحانه محتجًّا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من

دونه، ولهذا قال ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعنى يفعل ذلك.

فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده. وهذا أصح ما فُسِّرت به الآية كسابقها من قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠-٦١] ولاحقها إلى قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٣-٦٤].

فتأمل هذه الآيات؛ يتبين لك: أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه: من قصر العبادة جمعيها عليه، كما في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. قال أبو جعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير، أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أإلهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكُّرًا قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا؛ فلذلك أشركتم بالله وغيره في عبادته.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وروى الطبراني) أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله» [1].

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٩)، وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا ابن لهيعة وهو حسن الحديث». وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٧)، حديث (٢٢٧٥٨)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٨٧) من طريق ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح سسقط خلفه قوموا نستغيث

ش: الطبراني: هو الإمام الحافظ سليمان، بن أحمد، بن أيوب اللَّخْمي. الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبَري، وخلقٌ كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين) لم أقف على اسم هذا المنافق.

قلت: هو عبد الله بن أُبيّ كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته.

قوله: (فقال بعضهم) أي الصحابة رضي الله عنهم، هو أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه.

قوله: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله» فيه: النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه، كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته، حماية لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك وأدبًا وتواضعًا لربه، وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال.

فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أن يُستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري، والبرعي وغيرهم، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره ولا رب سواه. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨] في مواضع من القرآن ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢١].

فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيض ما دلَّت عليه هذه الآيات المحكمات، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجمّ الغفير. فاعتقدوا الشرك بالله دينًا، والهدى ضلالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فما أعظمها من مصيبة عمَّت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد وبدَّعوا أهل التجريد، فالله المستعان.

برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلام: -لا يقام لى إنما يقام لله-. وفي إسناده راوٍ مبهم.